الدكتور محمد البهى

حياتنا بين الشرق والغرب

١ — حضارة الغرب الصناعية
٢ — بحوث الغرب الطبيعية التجريبية والكيماوية
٣ — ثقافة الغرب المثالية والروحية
٤ — ثقافة الغرب الاستعمارية
٥ — ثروة الشرق الإسلامى : المعدنية والزراعية والبشرية
٦ — تراث الشرق الثقافى الإسلامى
٧ — رسالة الأزهر فى حياتنا بين الشرق والغرب

فصلة من مجلة (رسالة الإسلام) : العـدد الأول من السنة السابعة

اهداءات ١٩٩٩

المرحوم فضيلة الاستاذ

الدكتور/ محمد عبد الله دراز

حياتنا بين الشرق والغرب

لحضرة الكاتب الفاضل الدكتور محمد البهى

أستاذ الفلسفة فى كلية اللغة العربيـة

— ١ —

١ — الغرب له حضارة صناعية تمكن بها من الاستيلاء على منافع الطبيعة وتسخيرها فى رفع مستوى معيشة الإنسان ورفاهيته ، فى يسر من جانب وبنفقات قليلة من جانب آخر ، لو قيست بنتائجها وفائدتها فى الحياة العملية الإنسانية ، وكذلك إلى المجهود العقلى والفنى فى تصميمها وتنفيذها .

هذه الحضارة الصناعية تتمثل فى صناعات كثيرة تقوم على الآلات الميكانيكية ، وملاحظة نفر قليل من العمال الفنيين والمهندسين المتخصصين : فصناعات السفن ، والسيارات ، والطائرات ، وقطارات السكك الحديدية ، ومولدات الكهرباء ، وأجهزة الرصد والاختبار ، وآلات الطباعة ، والسينما ، والراديو ، والتليفزيون ، والموصلات السلكية واللاسلكية ... وغيرها ، هى من الآلات التى يكثر انتاجها ، وتؤدى خدمات متنوعة لا يستطيع تأديتها المجهود البشرى العادى بوسائله المحدودة .

وللغرب بجانب ذلك صناعة كيماوية فائقة : كصناعة الأدوية ، والمركبات العضوية وغير العضوية .

٢ — وللغرب تطور واسع فى بحوث العلوم الطبيعية التجريبية والكيماوية . ونتائج هذه البحوث تبلغ فى الدقة درجة اليقين فى كثير من جوانب هذا البحث . لأنه لم يكتف فيها بالمراقبة والملاحظة لظواهر الطبيعة وأحداثها ، وتفاعل العناصر التى يضم بعضها إلى بعض ، ثم رصد التغيرات التى تصاحبها ؛ بل استعان فى ذلك بالتجربة ، وبتحكيم مقاييس الاختبار الآلى والصناعى فى استحداث هذه التغييرات ، حتى لا يكون فهمه للطبيعة وقفاً على الصدفة ، وحتى لا يتأخر الانتفاع بها على الوجه الصحيح إلى وقت قد يطول أجله .

وهذه البحوث الطبيعية والكيمائية الدقيقة هى مقدمات حضارته الصناعية فى الأرض ، والماء ، والهواء . وكلها تتصل اتصالا مباشراً أو غير مباشر برفع المستوى الصحى ، والاجتماعى ، والاقتصادى للإنسان .

هذا التطور الحضارى فى ناحيته : ناحية الصناعة ، وناحية البحث الطبيعى والكيمائى ، له أثره الإيجابى المحايد فى الحياة الإنسانية . سواء فى جانب رفع المستوى المادى فى المعيشة ، أو فى جانب الإنتاج العقلى والفنى . إذ مما لا شك فيه أن الإنتاج الذهنى مرتبط ارتباطا وثيقا ـ ارتفاعا وانخفاضا ـ بالحالة الصحية والنفسية للإنسان .

وإذا كان أثر هذه الحضارة الصناعية ومقدماتها من البحوث الطبيعية والكيمائية أثراً إيجابيا ، ومحايداً فموقف الشرق منها يجب أن يكون موقف الغرب : سعى لاقتباسها ، وتفهم لأصولها وبحوثها ، واستمرار فى تنميتها وترقيتها ، وتوسيع لدائرة تطبيقها . ويوم يقف الشرق منها موقف المتفرج فقط ، أو موقف المتردد فى تقويمها وتقديرها ـ يوم يكون قد تصورها على أنها ضروب من السحر أو الشعوذة ، يومئذ يكون قد أخطأ فهمها ، وبالتالى تكون نتيجة تخلفه عنها على حسابه نفسه كفرد وكجماعة .

٣ — وللغرب بجانب هذا وذاك - بجانب الحضارة الصناعية والبحوث الطبيعية البحتة - بحوث عقلية توجيهية هي ما تعرف باسم « الثقافة » .

والغرب فى هذه البحوث العقلية التوجيهية قد سلك فيها مسلكان :

(ا) مسلك المثاليين ، أو المعنويين ،

(ب) ومسلك الماديين ، أو الوضعيين ، أو الواقعيين ، أو الاجتماعيين ، أو المجددين .

ولكنه لم يسر - منذ عصر النهضة - فى هذين المسلكين سيراً متوازيا ؛ بل فى الوقت الذى تطورت فيه حضارته الصناعية منذ النهضة الأوربية ، وتطورت بحوثه الطبيعية البحتة والكيمائية على إثر ابتعاد العقلية الأوربية فى بحثها عن مجال ما بعد الطبيعة ، وتركيز نظرتها إلى الطبيعة ، تنفيذاً للخطة التى اشتركت فيها الكنيسة الغربية - فى هذا الوقت ابتدأ الاتجاه المادى يسود فى بحث العلوم العقلية والروحية ، وابتدأت تُغفل فى بحثها وسيلتها الخاصة وهى الوسيلة النظرية أو العقلية الصرفة ، وأصبح يطلب فيها ضمانا لمعنى « اليقين » استخدام المنطق الوضعى ، وهو منطق الملاحظة والتجربة .

وبرزت سيادة الاتجاه المادى فى بحثها على عهد أوجست كومت (١٧٩٨ — ١٨٥٧) الفيلسوف الفرنسى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، واشتد أمره على عهد كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، صاحب المذهب الاجتماعى أو الشيوعى أو صاحب المذهب المادى التاريخى .

وبالتالى تخلف مسلك المثاليين ، وضعفت قيمته فى دائرة البحث العلمى . ونتيجة لذلك قل اعتبار البحث النظرى الميتافيزيقى ، ورمى « بالخرافة » ، واستبعد الدين ووصف بأنه « مخدر » ، وأخرجت القيم الأخلاقية المثالية من مجال تقدير

الإنسان صاحب الحضارة الصناعية ، وصاحب المذهب الواقعى ، أو الاجتماعى فى التوجيه الإنسانى .

لازَمَ إذن التقدمَ الصناعى الغربى ، انتشارُ المذهب المادى فى التوجيه ، وفى بناء الثقافة الغربية الحديثة ، واتخذ هذا المذهب من الحضارة الصناعية الغربية حجة له ، وسنداً فى قيامه وسعة نفوذه . ويعتبر القرن التاسع عشر المسرح الزمنى لسيادته كما ذكرنا .

Augut Comte - وهو من عمد هذا المذهب - يرى أن العقل الإنسانى يمر فى تاريخ الإنسانية بثلاث مراحل : مرحلة الدين ، ومرحلة الميتافيزيقا ، وأخيراً المرحلة « الوضعية » أو « الواقعية » .

ويرى أن المتحكم فى المرحلة الأولى رجل الدين ورجل الحرب ، وفى الثانية الفيلسوف والقانونى ، وفى الثالثة العالم الطبيعى ورجل الصناعة .

ولأن « الفرد » فى نظره هو الحقيقة الأولى التى يجب أن تبتدىء منها الحياة العملية ، والشعور « الجماعى » هو الغاية الأخيرة للحياة - يرى كومت أن العلوم التى يجب أن تكوّن « الثقافة » هى : علوم الرياضة ، الفلك ، الطبيعة ، الكيمياء ، علم الاحياء ، علم الاجتماع . وهو العلم الذى يجب أن تتركز فيه الأهمية . إذ أنه علم الحقائق والقوانين المتعلقة بالجماعة الإنسانية . وهدفه تنظيم الحياة الإنسانية كلها ؛ تنظيم الجماعة الإنسانية تنظيما يتطور فيها حال الحرب إلى حال الصناعة ، وحال الحيوانية إلى حالة الإنسانية ، وحال الغريزة العمياء إلى حال سيادة العقل ، وحال « الأنانية » إلى الشعور « الجماعى » .

وهذه العلوم التى يراها أساس الثقافة فى حاجة - لكى تتطور هذه الأحوال بسرعة - إلى « دين الإنسانية » ، وهو الدين الطبيعى الذى يجب أن يكون موضوعه « الإنسانية نفسها » [Grandetre] وهى الطبيعة الكبرى . وقوام هذا الدين : المحبة كمبدأ ، والنظام كأساس ، والتقدم كهدف وغاية . والإنسان بدلا من أن يعبد الله يجب أن يتجه فى عبادته إلى الطبيعة الكبرى وهى الإنسانية .

أما البحث الإلهى الدينى ، وأما البحث الفلسفى الميتافيزيقى ، فكلاهما فى رأى « كومت » عديم الجدوى . الدين وفلسفة ما بعد الطبيعة خرافة يجب أن يبعدا من دائرة الثقافة .

والفرد إذن تبعاً لهذا المذهب هو الأمر « الواقع » ؛ هو الحقيقة « الوضعية » . ولذا يجب أن تتجه النظرة الباحثة إليه أولا . ثم من هـذا الفرد يحدث الترقى والتطور ، ويحدث تحديد المصير لحياة الجماعة كلها .

الفرد أولا ، والجماعة ثانياً ، هما الحقيقتان الموجودتان ، وإحداهما مبدأ ، والأخرى غاية . تلك نظرة المذهب الواقعى ، أو الاتجاه المادى .

وهذا على عكس الدين تماما : إذ فى الدين يبدأ تحديد المصير للكون كله من الموجود المطلق وهو الله . ثم إليه تعالى ينتهى هـذا الكون . فالله فى الدين هو الأول والآخر . والفرد والجماعة الإنسانية تتلقى التوجيه من الوحى السماوى . وتوجيه البشر قاطبة فى نظر الدين إذن توجيه تلقائى ، وليس منبثقا مما يسمى الحقيقة الأولى المشاهدة فى هذا العالم ، وهى الإنسان الفرد ـ كما يقول الإنسان المادى ـ .

والمذهب المادى والدين طرفان متقابلان تماما فى النظرة إلى الوجود ، وفى توجيه الإنسان فرداً وجماعة : ذاك يقصر الحقيقة على الفرد والجماعة ، وينكر ما عداهما كمصدر للتوجيه ، وكغاية للحياة . وهذا يؤمن بوجود أسمى وراء الفرد والجماعة ، وهو الله ، منه التوجيه ، وفيه تتحقق الغاية الأخيرة للحياة الإنسانية والوجود الإنسانى .

والمذهب المادى فى تطوره ـ وهو المذهب الواقعى أو الوضعى ، أو مذهب التفسير المادى للتاريخ ـ صار إلى المذهب الاجتماعى أو المذهب الشيوعى : قوام هذا المذهب نقل قيمة الفرد كلية من ذاته إلى « وحدة » الجماعة الكبيرة ،

أو ما يسمى بالإنسان العام ، أو « الإنسان التعاونى » Kollktiv-Menschen والدولة المطلقة Staats Absolutismus هى المبدأ الأخير للحياة كلها . وتطبيقاً لهذين الأساسين يجب تأميم مصادر الإنتاج والاستهلاك فى دائرة الاقتصاد .

وكان المذهب الشيوعى تطوراً للمذهب المادى أو الواقعى ، لأنه من حيث المبدأ يعترف بالفرد والجماعة فقط كحقيقته فى هذا الوجود ، وينكر ما عداهما : لا يؤمن بالله كما يقول الدين ، ولا يعترف بالعلة الأولى فيما بعد الطبيعة كما تقول الفلسفة الميتافيزيقية . ولكنه مع مشاركته للمذهب الواقعى فى الاعتراف بهاتين الحقيقتين يبالغ فى قيمة الجماعة فيجعلها كل شىء . والفرد لذلك لا تُرى حقيقته ، ولا تقدر قيمته إلا داخل الجماعة . ومن هنا قد يعنون له بالمذهب « الاجتماعى » .

وكارل ماركس Karl-Marx صاحب المذهب الاجتماعى أو الشيوعى يُصدر فى فلسفته عن الفهم المادى للتاريخ . ويعتبر « الاقتصاد » الأساس المحدد لكل شىء ، والمغير للعالم وما فيه ، حتى الثقافة العقلية والروحية : فتطور العقل الإنسانى وآثاره الإيجابية فى الدولة والقانون تتصل فى نظر ماركس اتصالا وثيقا بالظروف المادية للحياة وأحوالها . ثم طريقة الانتاج فى الحياة المادية تؤثر فى مجرى الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والعقلية . والوجود الاجتماعى للإنسان هو الذى يحدد فى الجملة لذلك عقل الإنسان وتكوينه .

وهناك أيضاً صور أخرى للتيار المادى فى التوجيه ظهرت أيضاً فى القرن التاسع عشر . ولكن عنفها ضد الدين وضد الفلسفة الميتافيزيقية لم يبلغ مبلغ المذهب الاجتماعى أو الشيوعى لكارل ماركس ، ومع ذلك فهى مناوئة لهما .

منها مذهب « النسبية » Relativismus الذى يرى أن الحقيقة ليست مطلقة ، بل مرتبطة أيما ارتباط بصفة الآلة المفكرة وظروفها التى تفكر فيها .

وصورة أخرى تتمثل فى مذهب البراجماتزم Pragmatisnus [مأخوذ من كلمة براجما الإغريقية ، وهى الشىء الواقع أو المصلحة المتبادلة] لمؤسسه

الفيلسوف الأمريكى وليم چميس فى آخر القرن التاسع عشر (١٨٤٢ - ١٩١٠). وفى رأى هذا المذهب أن « الحقيقة » هى التى تخدم المصلحة الخاصة. والحق كذلك ليس قيمة من القيم فى ذاته، والخير ليس من القيم الرفيعة المطلقة، بل الذى يحقق المصلحة الخاصة هو الحق، وهو الخير أيضاً.

وممن عنى بالاتجاه المادى من فلاسفة الانجليز : « هيوم » و « ميل » و « اسبنسر » و « راسل ».

وهذا الاتجاه يرجع فى أصله إلى الفيلسوف الإغريقى « بروتا جوارس » فى الفلسفة القديمة.

ولسنا الآن بحاجة إلى الرد على هذا المذهب من وجهة نظر علماء آخرين، ومدارس توجيهية أخرى لها حظها فى الثقافة الغربية الحديثة. إذ لم يكد ينتهى القرن التاسع عشر الذى تسلم من عصر النهضة الأوربية الدعائم الجديدة لهذا المذهب المادى فى التوجيه، وتسلم كذلك أنصاف الحلول فى المشاكل العقلية - لم يكد ينتهى هذا القرن حتى قامت فيه بعض المدارس المقابلة الأخرى لترد إلى الدين اعتباره، وإلى الفلسفة الميتافيزيقة اعتبارها :

فنجد اشبرانجر Spranger (١٨٨٢) يكافح مذهب « النسبية » بما وضعه من علم سماه علم « القيم » أو « الطبائع ». وانتصر بذلك لمذهب « المطلق » المقابل لهذا المذهب.

واشترك مع ڤيلهلم ديلتاى Wilhelm Diltey (١٨٨٣ — ١٩١١) فى محاولة إزالة الفجوة بين العقل والوحى، أو بين العلم والدين، وأبعدا فى محاولتهما استخدام طريقة البحث الطبيعى فى الموضوعات العقلية والدينية، وأعادا إليها طريقة البحث العقلى، وهى النظر الخالص.

كما نجد الفيلسوفين الألمانيين فى القرن العشرين Husserl (١٨٥٩)

وشيلير Max Scheler (١٨٧٥ — ١٩٢٨) قد حاولا أن يجعلا الفلسفة تبتدىء من التجارب النفسية لتصل إلى المعرفة الميتافيزيقية .

وهذه المحاولة وتلك نقضٌ لاتجاه المذهب المادى الذى ساد فى القرن التاسع عشر ، وتكوّن على أثر تقدم البحث الطبيعى فى عصر النهضة الأوربية نتيجة استخدام وسيلة هذا البحث — وهى الملاحظة والتجربة الآلية — فى البحوث الروحية والعقلية .

وإذا كان لنا أن نذكر أحداثاً مادية تعقيباً على الآثار السلبية للمذهب المادى فى الحياة الغربية خاصة ، والإنسانية على وجه العموم - فنشير فقط إلى أن الديمقراطية الغربية - وهى صاحبة الكفة الراجحة فى الحضارة الصناعية الحديثة - ترى فى هذا الاتجاه المادى خطراً على الإنسانية وتراثها من المدنية والثقافة . وأصبح شعورها بهذا الخطر يزداد يوما بعد يوم .

كما نشير إلى أن سيطرة رجل الصناعة والعالم الطبيعى أو الاجتماعى التى نشدها أوجست كومت فى فلسفته الواقعية هى التى سببت الحرب العالمية الأولى وكذا الثانية . وإن دلتا هاتان الحربان على شىء وراءهما فليس على المحبة كمبدأ ، ولا النظام كأساس ، كما طلب « كومت » فى دينه الذى سماه بالدين « الطبيعى » وجعله الوسيلة لتحقيق « الجماعة » المنشودة ، بجانب قصر الثقافة على مواد معينة ليس من بينها الدين ، والفلسفة الميتافيزيقية .

هاتان الحربان نعم كان وراءهما تكتل عالمى تجاوز حدود القوميات ولكنه تكتل لم تتحول فيه الحيوانية إلى الإنسانية ، والغريزة العمياء إلى العقل السائد ، والأنانية إلى الشعور الإنسانى الجماعى ، على نحو ما انتظر أوجست كومت يوم يكون لرجل الصناعة وللعالم الكلمة الأولى فى التوجيه ، دون رجل الدين ورجل الجيش ، ودون القانونى والفيلسوف . وقد كانت سيادتهما السبب المباشر المختفى وراء قيامهما .

كما أن إفناء الفرد فى الجماعة وجعل الجماعة ـ بمعناها الواسع ـ الغاية الأخيرة فى الحياة ـ كما يرى ذلك المذهب أو الشيوعى ـ هو الذى يهدد الغرب الآن فى حضارته الصناعية ، وفى تراثه التاريخى من الثقافة الروحية والإنسانية ، وهو الذى يحمل الغرب كذلك على أن يباشر فى سياسته الدعوة إلى الروحيـة كوقاية من الآثار السلبية لهذا المذهب المـادى .

ولكن بالرغم من مناوءة بعض العلماء المثاليين أو الروحيين ، وبالرغم من وضوح الآثار السلبية لهذا المذهب فى الحياة الإنسانية ـ بالرغم من ذلك لم يزل هذا المذهب مقترنا فى التصور بالحضارة الصناعية الغربية والبحوث الطبيعية البحتة . وهذا الاقتران نفسه هو سبب الاختلاف فى تقـدير الحضارة الصناعية الغربية ، وسبب التردد فى الأخذ بهـا عند كثير من علماء الشرق الإسـلامى وقادتهم فى التوجيه .

وفى الوقت نفسه من وجهة نظر أخرى : هذا الاقتران فى التصور بين التيار المـادى فى التوجيه والحضارة الغربية الصناعية أوحى لبعض كتاب الشرق وعلمائه بأن يضغطوا على الثقافة الإسلامية الأصيلة ، وعلى التوجيه الروحى عامة فى الشرق . لأنهم ظنوا ـ نتيجة لهذا الاقتران فى التصور ـ أن الشرق سوف لا يقبل الحضارة الصناعية الغربية إلا إذا ألغى اعتبار التوجيه الروحى ، وأخذ بوجهة نظر المذاهب المـادية ، وعلى الأقل فى صورة المذهب الوضعى أو الواقعى لأوجست كومت ، أو فى صورة مذهب البراجماتزم لوليم جميس .

وأصبحنا نجد فى المكتبة العربية المعاصرة : المنطق « الوضعى » ، و « خرافة » الميتافيزيقيا لبعض أساتذة الجامعة فى مصر ، كما أصبحنا نسمع فى المؤتمرات التى استهدفت تحديد معالم الثقافة الضرورية للمواطن الشرقى صيحات تطالب بإبعاد الدين وما يتصل به من ثقافة من محيط الثقافة الضرورية للمواطن فى الشرق الأدنى على نحو ما حدث فى المؤتمر الثقافى العربى الثانى الذى عقد بمدينـة الاسكندرية

فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٥٠ عند عرض مقررات اللجنة الثقافية على المؤتمرين من مصر والبلاد العربية .

وما زال بعض الكتاب فى الصحف والدوريات يوالى نشاطه فى تضخيم الهوة بين الثقافة الإسلامية من جانب والحضارة الصناعية الغربية من جانب آخر ، وينعت هذه الثقافة بأنها العقبة فى تحضير الشعوب الشرقية على نحو ما فى الغرب .

٤ — وللغرب ـ بجانب الحضارة الصناعية ، والبحوث الطبيعية البحتة ، والتوجيه المادى فى مجال الثقافة ـ لون آخر من الثقافة ليس مادياً فى الأساس والنشأة ، ولكنه مادى فى الغاية والهدف . وهو الدراسات الاستعمارية التى تتناول مخصصات الشعوب الضعيفة ومقوماتها من التراث العقلى ، والروحى ، والفنى ، وأقصد بالشعوب الضعيفة الشعوب التى ليست لها حضارة صناعية حديثة تساير حضارة الغرب الحالية .

إن كثيراً من علماء الغرب يتناول ثقافة الشرق العقلية ، والروحية ، والفنية بالشرح والتخريج بناءً على فكرة سابقة لديهم : وهى أن الشرق يجب أن يبقى فى وضعه من الغرب . الغرب سيد والشرق مسود . وذلك تحقيقاً لغاية اقتصادية أو صليبية . وتطبيقاً لهذه الفكرة تصبح ثقافة الشرق إذا استوردت من الغرب مصدر ضعف للشرقيين أنفسهم ، لا مصدر قوة لهم . وتبعاً لذلك توحى لهم بالحاجة إلى الغرب فى التوجيه ، وبوصايته عليهم فيما يأخذون ويتركون .

ولم تزل ترن فى أذنى الآن كلمة أحد المستشرقين فى المؤتمر الثقافى الإسلامى الذى عقد بجامعة برينستون بنيوجرسى فى سبتمبر عام ١٩٥٣ عند ما ذكر : « أن المسلمين قاموا بدور إيجابى فى تصحيح الحديث يسجله لهم تاريخ الثقافة الإنسانية بالفخار ، ويرجى من معاصريهم الآن أن يقوموا بتصفية القرآن وإزالة التناقض فيه ؟؟ ـ كما ادعى ـ » .

ومن اطلع على توجيهات المستشرقين فى بحوثهم فى دائرة الثقافة الإسلامية يجد كثيراً من توجيهاتهم تقوم على الغرض ، وفى بعض الأحيان على نقص فى استيعاب الفكرة ، أو على الفهم اللغوى الحَرْفىّ لبعض النصوص العربية (١) .

وبعض المعاصرين منهم يطالب باستخدام الطريقة العلمية - وهى وسيلة البحث الطبيعى - فى التراث الإسلامى الروحى بدعوى أن التاريخ الإسلامى نفسه وكذا بعض الحقائق الإسلامية فى حاجة إلى تنظيم علمى ومراجعة علمية ، كى تساهم فى خدمة الإنسانية عامة .

ونخلص الآن إلى أن فى الغرب :

(ا) حضارة صناعية ، ومقدماتها من البحوث الطبيعية المحايدة ،

(ب) وتوجيها ماديا عنيفاً فى الثقافة العربية ، بجانب توجيه آخر هزيل - بالقياس إلى مجاوره فى قوة السلطان وبسط السيطرة - هو التوجيه المثالى أو الروحى .

(حـ) توجيهاً استعمارياً فيما يسمى بالدراسات الإسلامية أو دراسات الاستشراق على العموم هناك .

---

(١) يطلع على سبيل المثال على الكتب التالية :

(ا) تطور العقيدة فى الإسلام] جلد زيهر : المستشرق المجرى
(ب) تاريخ مذاهب تفسير القرآن]

(ج) تاريخ التشريع فى الإسلام : ليوسف شاخت : المستشرق الإنجليزى

(د) « الحديث » فى الإسلام : لجيوم : مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن

(هـ) الإسلام فى العصر الوسيط : لجرين بوم : رئيس قسم الدراسات العربية بجامعة شيكاغو

(و) عائشة : « حبيبة محمد » : لنابيه عبود : رئيسة قسم الدراسات الإسلامية بجامعة شيكاغو

— ٢ —

١ — أما الشرق الإسلامى ففيه ثروة كبيرة من المعادن ، والمنتجات الزراعية ، بالإضافة إلى ثروة بشرية ضخمة . تكوّن جميعها المواد الأولية لصناعات كثيرة ، ويصح أن تتخذ أساسا لحضارة صناعية ، لو توفر معها العنصر الفنى ، والآلى ، والبحث التجربى .

٢ — وفيه تراث ثقافى إسلامى ، وتوجيه روحى ، لا يضاد الحضارة الصناعية الحديثة إلا إذا فهم محرفا ، أو فهمت الحضارة الصناعية خطأ .

ولكنه مع ذلك يضاد التوجيه المادى فى جميع صوره : من الواقعية ، إلى الشيوعية ، فالبراجماتزمية . لأن الإسلام ينظر إلى الفرد على أنه طبيعة ثنائية ، له إنتاج مادى وآخر عقلى ، وعلى أن قيمته العقلية لا يتحكم فيها جانبه المادى . وينظر إلى الجماعة على أنها بناء عام من الأفراد ، ولكنه تتميز فيه أشخاص الأفراد .

وتبعا لهذه النظرة : للفرد قيمته فى ذاته ، وقيمة أخرى بالنسبة لجماعته . ووراء الفرد ، ووراء الجماعة حقيقة أخرى عليا يجب الإيمان بها والإذعان لما توحى به من وصايا وتعاليم فى صلة الأفراد بهذه الحقيقة العليا ، وفى صلة كل منهم بغيره فى جماعته . هذه الحقيقة العليا هى الله تعالى .

الاسلام فى الآيات الكريمة التالية يصف نظرته إلى الوجود كله ، ويحدد الجماعة التى ينشدها : يقول الله تعالى فى سورة الشورى (الآيات من ٣٦ - ٣٩) :

« فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ،

وما عند الله خير وأبقى ،

للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ،

وإذا ما غضبوا هم يغفرون .

والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ،

وأمرهم شورى بينهم ،

ومما رزقناهم ينفقون .

والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .

فاعترف بهذه الحياة المادية وبقيمها ، ولكنها ليست فى نظره الوجود كله . بل هناك الله ، وما عنده خير وأبقى .

وحدد جماعته المنشودة بأنها الجماعة المؤمنة بالله ،

والتى يشارك أفرادها بعضهم بعضا فى المعاونة الاجتماعية بالإنفاق ، وفى دفع الاعتداء الخارجى عليهم دفعاً يحفظ لهم كيانهم ، وفى تبادل الرأى بينهم ،

والتى يتصف أفرادها بالاستقامة فى السلوك وعدم ارتكاب الجرائم فى علاقة بعضهم ببعض ، وبالطاعة فى صلاتهم بخالقهم .

وكأنى بالإسلام يعنى أصحاب الاتجاه المادى بهاتين الآيتين الكريمتين :

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

« ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير » .

وكما أن تراثنا الثقافى الإسلامى يضاد الاتجاه المادى فى الثقافة الغربية الحديثة فإنه لا يتفق فى أصالته مع التخريج الذى يخرج به فى محيط الاستشراق الغربى .

وإذن تراثنا الشرقى من إسلامى وروحى على العموم ينسجم مع الحضارة

الصناعية الحديثة عند الفهم المستقيم ، ولكنه لا ينسجم مع التخريج الغربى له ، كما أنه فى الوقت نفسه يضاد الاتجاه المادى فى الثقافة الغربية الحديثة .

— ٣ —

هل يمكن لنا فى حياتنا الشرقية أن ننتفع بحضارة الغرب الصناعية ، مع الاحتفاظ بتراثنا الثقافى الإسلامى والروحى على العموم ؟ .

إننا لو استطعنا ذلك رفعنا مستوانا الصحى ، والاجتماعى ، والاقتصادى ، وسلمنا من الهزات العنيفة فى التوجيه وفهم الحياة ، واحتفظنا مع ذلك بمقوماتنا الأصيلة كأمة من مجموعة الأمم الشرقية والإسلامية ! .

وإن مدى استطاعتنا يتوقف إلى حد كبير على عناية الأزهر برسالته ، وعلى أن يُمَكَّن من تأدية هذه الرسالة . إذ ليست الجامعة المصرية الحديثة هى التى تلائم بين تراثنا الثقافى الإسلامى ، وبين الحضارة الغربية الحديثة فى مجتمعنا المصرى أو الشرق الإسلامى ، بل الأزهر ، ويكاد يكون وحده .

وإن قبول البيئة الريفية فى مصر لآثار الحضارة الصناعية الحديثة ومظاهرها مهمة لا يؤديها المرشد الاجتماعى ، وإنما يؤديها صاحب الثقافة الأزهرية إذا فهم هذه الحضارة على وجهها الصحيح وفهم موقف الاسلام منها .

والنظام الرأسمالى الذى يستخدم فى الصناعات بمصر لا يقربه من العقلية المصرية العامة حتى تؤمن به وبنتائجه الايجابية فى الحياة المصرية ـ فتساهم فيه ، أو تستسيغه عن رضاً واطمئنان ـ إلا العقلية الأكاديمية فى البيئة الأزهرية .

* * *

وموجز الرأى : أن فى حياة الغرب « حضارة » صناعيـــة تسايرها تعاليم الإسلام .

وفيها بحوث طبيعية بحتة ، وكيمائية - هى الأسس لتطور الحضارة الصناعية - لا تجافى الإسلام ولا تعادى رسالته .

وفى حياة الغرب أيضا « ثقافة » توجيهية ، هى ما نعرف بالثقافة الغربية الحديثة :

الاتجاه المادى فى هذه الثقافة سيطرة وشأن ، وهو يناوىء الإسلام تماما .
وفى الاتجاه الروحى والمثالى فيها هزال وضعف لسنا فى حاجة إليه ، مع قوة إسلامنا وسلامة توجيهه الروحى .

وطابع الاتجاه الاستشراقى فيها يتسم بالحزبية والغرض ، ويقوم على فكرة صليبية أو سياسية . وهذا أيضاً لسنا فى حاجة إلى استيراده ، ثم الأخذ به فى توجيهنا فى الحياة ، لأنه مصدر ضعف لنا من جانب ، وحائل بيننا وبين الفهم المستقيم لتراثنا الثقافى من جانب آخر .

إسلام يُعتز به فى التوجيه ، وحضارة صناعية تقتبس يجب أن يكون الشعار لنا فى حياتنا المعاصرة .

توجيه ثقافى غربى فى صورة من صوره الثلاث إذا سرنا وراءه فقدنا شخصيتنا أولا ، ثم اضطربنا فى توجيهنا ثانياً ، ثم كنا أخيراً لا فى عداد الغربيين ، ولا فى عداد الشرقيين .

إن وجودنا كجماعة وكأمة ليس وجوداً مادياً فحسب ، إنما قوامه قبل ذلك أننا شعب شرقى إسلامى له ماض عريق فى الثقافة والحضارة الإنسانية ؟


Bibliotheca Alexandrina
02412222